الاخلاق فى شعر شوقى

رد على نقد

الاستاذ عبد الوهاب عزام الخطيب

١

كتب حضرة الأستاذ الكبير . على الجندى ناصف ، المدارس بكلية دار العلوم مقالا ممتعا فى عدد مارس الماضى من الصحيفة بالعنوان المتقدم ، وقد قرأته بعناية وروية ، لأنى أحب أن أقرأ مايكتب عن شوقى . ولولا أن للاستاذ من القيمة الأدبية مايبعث على أخذ رأيه قضية مسلما بها ولو فى نظر تلاميذه وعارفى فضله ـ ماعرضت للرد عليه فان الحقائق الأدبية ينبغى أن تمحص قبل أن تصاغ على أقلام كبار الكتاب فى صور أحكام عامة .

وقد بنى الأستاذ الكبير بحثه على دعائمه الخمس : الخلق الفضل كما يصوره شوقى ، مبلغ تصويره له من الفن والفلسفة : موازنة بينه وبين غيره فى ذلك . الرأى فى سبب تلقيبه بشاعر الأخلاق . نقد وتحليل . وأنهى الموضوع بهذا الحكم القاسى العجيب والذى لاشك فيه ـ على كل حال ـ أن شوقى لم يستطع عرض قضية الأخلاق وعملها فى بناء الأمم عرضا سليما وافيا ، إلا فى أربعة أبيات ،

أما أنا فأقول : يحسن بالباحث أن يدرس اخلاق شوقى . ويدرس اخلاق الأمة فى عهده . وأخلاق الشعوب الراقية وكيف استطاعت أن ترقى ، ثم يدرس النصوص الأخلاقية وملحقاتها فى شعر شوقى ، ويوازن إن أحب ، وينقد ويحلل إذا أراد ،

٢

وقد أتيح لى شرف التعرف الى شوقى . نضر الله بالنعيم وجهه ـ وأشهد أن أعز مالدى من الذكريات ، تلك الساعات القصار ، التى كنت أقضيها مع أمير

الشعراء فى كرمة ابن هانىء بالجيزة . أو فى مكتبه بشارع جلال تتجاذب أطراف الأحاديث فى شتى الموضوعات

ولمست فى نفس شوقى أرفع الخلال الانسانيه وأسماها ، وجه سمح كريم وقلب عطوف نبيل . وخلق رضى مهذب ، فى عفة لسان ، وشجاعه رأى ، وشكر للصنيع ووفاء للاصدقاء قل أن يماثله وفاء .

ولم يحدثنا شوقى عن نفسه كثيرا فى شعره على كثرته . غير أننا نستطيع أن نلمح هذه الصفات الرفيعة من أبيات صاغها عرضا فى بعض قصائده .

— ١ —

هذا أمير البلاد يؤدى فريضة الحج ، فلا يستطيع شاعره أداءها معه ، إنه كان يريد أن يعود بالحجة كيوم ولدته أمه . ويمحو الله بالصفح الناصع الجميل ما سود من صفحاته بالهفوات الكثيرة متخذا من صفاء سريرته ، وكريم حلمه ، وشفقة قلبه ، وحب وطنه ، ومبالغته فى البر والاحسان سبيلا وشفيعا إلى ولى العفو والمغفرة .

ويارب هل تغنى عن العيد حجة ... وفى العمر ما فيه من الهفوات
وتشهد ما أذيت نفسا ، ولم أضر ... ولم أبغ فى جهرى ولا خطراتى
ولا غلبتنى شقوة أو سعادة . ... على حكمة آتيتنى وأناة . .
ولا بت إلا كابن مريم مشفقا ... على حسدى ، مستغفرا لعداتى
ولا حملت نفس هوى لبلادها ... كنفسى ، فى فعلى ، وفى نفثاتى
وإنى ولا من عليك بطاعة ... أجل وأغلى فى الفروض زكاتى
وانت ولى العفو ، فامح بناصع ... من الصفح ماسودت من صفحاتى

وهذه ابنته أمينة ، قد خرجت من الحبو إلى المشى ، فتركت تمشى وحدها ، فهى لاتكاد تتماسك ، فينظر اليها ، محلقا على خطواتها ببصره ، ويكاد يمسكها بخاطره الذى يرسله معها خوفا عليها . فى رقة قلب ليس لها نظير ، وحنان أبوة ليس له مثيل .

كم خفق القلب لها ... عند البكا والضحك
فإن مشت خاطرى ... يسبقها كالممسك

ألحظها كأنها من بصرى فى شرك

ويصف شوقى ليلة راقصة فى قصر عابدين فى صدر شبابه ، ويطلب إلى النديم أن يخف بكأسه ، ولا يسأل عما تحدثه ذات الحبب فى نفس شاربها من كبرياء وجموح فإنه أمام شاعر جبار العقل ، كامل الفطنة ، مهذب الخلق ، لا يمكن أن تفعل به كما كانت تفعل بغيره من الشعراء الذين يشربونها فتتركهم ملوكا وهم صعاليك ، أو تخيل إليهم أنهم أصحاب الخورنق والسدير ، وهم ذوو شوهات وبعران .

يا نديم خف بها لا كباك الطرب
لا تقل عواقبها فالعواقب الأدب
تتجلى ولى خلق ينجلى ، وينسكب

ب

وكان شوقى كغيره من كبار الشعراء ، محسودا على فضله ، مكذوبا على أثره ، وكان يستطيع أن يرد هؤلاء الحساد عن غيهم بقوارص الكلم ، من غير أن يكون عليه فى ذلك حرج فان الله سبحانه يقول « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ولم يظلم أحد كما ظلم شوقى من حاسديه . ولكنه ترفع وتأبى عن مجازاتهم لا لأنهم لا يستحقون المجازاة ، بل لأن طبيعة قلبه ، ونبل خلقه ، وسماحة نفسه ، جعلته يسير فى طريقه من التسامى والاباء ، ولأنه صاحب رسالة اخلاقية ، فلا بد أن يكون هو نفسه مثالا رفيعا للخلق الرفيع .

كان شوقى يخالف قاسم أمين فى سفور المرأة ، فلما نجحت قضية قاسم . عدل شوقى عن رأيه ، وسجل هذا الاختلاف ، وأبان أنه لم يؤثر على العلائق القلبية بين الصديقين وإن كان قد آوغر فكريهما ، وضرب مثلا كريما لمثل هذا الخلاف يحسن بكثير من أدباء هذا الزمان أن يتدبروه فلا يتدابروا لأدهى الاسباب .

لقد اختلفنا والمعا شر قد يخالفه العشير
فى الرأى ثم أهاب بى وبك المنادم والسمير
وحما الرواح إلى مغا نى الودما اقترف البكور
فى الرأى تضطغن العقـــول وليس تضطغن الصدور

ولم يهج شوقى فى حياته إنسانا معيبا لذاته . وإذا كانت قصائده فى كرومر ، ورياض ، وشريف مكة قاسية شديدة اللهجة ، فذلك لأن سياسة كرومر ، وطغيانه وكبريائه ، وسوء تقديره المصريين . كانت تستحق من شوقى هذه الشرة .

اليوم أخلفت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
فى كل تقرير تقول خلقتكم أفهل ترى تقريرك التنزيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه مستعفيا إن شئت أو مغرورلا

ولأن مصطفى رياض باشا ، كبير السابقين من الكرام ، فى مصر ، ما كان ينبغى له أن يتملق ، كرومر ، عميد الدولة المحتلة بكلام يكفر به نعمة مصر وأصحاب عرشها .

خطبت فكنت خطبا لا خطيبا أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عمن قال فيه وما أغناك عن هذا الترامى
أراعك مقتل من مصر باق فقمت تزيد سهما فى السهام
وهل تركت لك السبعون عقلا لعرفان الحلال من الحرام ؟

ولأن الشريف وأعوانه سفكوا الدماء فى الأرض المقدسة ، واستباحوا بها الأعراض والحرم ، فكان لابد من توجيه نظر الخليفة إلى هذه المظالم بأسلوب قاس وتفصيل واضح .

يد الشريف على أيدى الولاة علت ونعله دون ركن البيت تستلم
نيرون أن قيس فى باب الطغاة به مبالغ فيه والحجاج متهم . .
أدبه أدب أمير المؤمنين فما فى العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقارا للرسول فما بين البغاة وبين المصطفى رحم .

ولشوقى خمسة أبيات قالها فى صاحب أهوج كثير الحركة والكلام . وهنا يحسن أن نلاحظ أدبه الكامل فى أنه لم يذكر اسم هذا الصاحب ، وأنه لم يبالغ فى ذمه ،

وإنما أعطانا صورة صادقة لكثير من أمثاله . بل إنها صورة أكثر أدبا وألطف مذهبا من صاحبها .

لنا صاحب قد مس إلا بقية فليس بمجنون وليس بعاقل
له قدم لا تستقر بموضع . كما يتنزى فى الحصى غير ناعل
إذا ما بدا فى مجلس ظن حافلا من الصخب العالى وليس بحافل

ومقطوعاته فى محجوب ثابت بالطبع ليست من الهجاء فى شىء ، ولا هى من النوع التهكمى الذى يؤذى صاحبه فيما لو كان شخصا عاديا لا تربطه بالشاعر أوشج روابط الصداقة ، وإنما جاءت من النوع الدعابى اللطيف البارع .

براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ما طعمت من دمى
تشـــق خراطيمها جوربى وتنفذ فى اللحم والأعظم
ترحب بالضيف فوق الطريق فباب العيادة . . . فالسلم . . .
قد انتشرت جوقة جوقة كما رشت الأرض بالسمسم . . .
وتبصرها حول « بيبا » الرئيس وفى شاربيه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه مع السوس فى طلب المطعم

وإذا أردنا أن ندرك السر فى عفة لسان شوقى فما علينا إلا أن نقرأ وصفه لابن زيدون وامتداحه إياه بأنه كان يأبى الهجاء إذا ماهاجه ، ويراه رذيلة لا تساير الأدب العالى ولا الخلق الطيب ، والشعر كالزنبق لا يصح أن تدس فيه للناشقين العقارب .

واذا الهجو هاجه لمعاناته أبى
ورآه رذيلة . . . لاتماشى التأدبا
ما رأى الناس شاعرا فاضل الخلق طيبا
دس للناشقين فى زنبق الشعر عقربا

ـ

وشجاعة الرأى تظهر عند شوقى جلية فى وصفه سقراط وتفضيله الموت النبيل على الحياة الغبية حين يقول :

سقراط أعطى الكأس وهى منية شفتى محب يشتهى التقبيلا

عرضوا الحياة عليه وهى غباوة فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا

وحين يقول :

وابل سقراط ، والشجعان طل إنما من ينصر الحق الباطل

وتظهر أوضح من ذاك فى دفاعه عن الدستور . وهل هو حق للامة . أو منحة من الملك ؟ وقد كانت الصراحة فى هذا الموضوع الدقيق مدعاة للسخط من رجال القصر لو أنهم فهموا كل بيت من شعر شوقى وأدركوا مراميه .

فقد ائتلفت الأحزاب السياسية وعقدت مؤتمرا وطنيا فى دار محمود سليمان باشا برياسة سعد سنة ١٩٢٦ وألقى النائب الشاب (إذ ذاك) فكرى أباظه قصيدة شوقى فلم يأت إلى البيت الأخير من الأبيات الآتية حتى ارتعدت فرائصه من هول ما فيه :

الله ألف للبلاد صدورها من كل داهية وكل صراح
وزراء مملكة ، دعائم دولة أعلام مؤتمر اسود صباح
يبنون بالدستور حائط ملكهم لا بالصفاح ولا على الأرماح
وجواهر التيجان مالم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح

ويحطم نظريه « الدستور منحة » ويوضح حق الأمة فيه ، وجهادها فى الحصول عليه ، وبذلها فى سبيله غوالى المهج ، وأن المصريين لم يأخذوه عطاء ولا هبه وإنما أخذوه عن جدارة واستحقاق لأنهم يرون فيه الفلاح والسعادة ، فيقول بلهجة أشد صراحة من تلك فى ذكرى عيد الجهاد الوطنى من ذلك العام ، وهى قصيدة يحسن نشرها بالديوان فى الطبعة المقبلة » .

يمينا بالتى يسعى إليها غدوا بالندامة أو رواحا
وبالدستور وهو لنا حياة نرى فيه السعادة والفلاحا
أخذناه على المهج الغوالى ولم نأخذه نيلا مستباحا . .
لما ملأ الشباب كروح سعد ولا جعل الحياة لها طماحا

فلا عجب إذن ، وقد أهدت اليه « بمباى » يراعا من الذهب الخالص فى حفلة

تكريمه ألا يكتب به إلا فى ظلال الخلق الكريم ، والرأى الحر ، فى غير بغى ولا لؤم لجاج ، ولا اعتداء على حق .

ليس تلقى براعها الهند إلا فى ذرا الخلق أو وراء ضمانه
أنتضيه انقضاء موسى عصاه يفرق المستبد من ثعبانه ...
يلتقى الوحى من عقيدة حر كالحوارى فى مدى إيمانه
غير باغ إذا تظلم حقا أو لئيم اللجاج فى عدوانه

— د —

وكان شوقى شاكرا للنعمة ، معترفا بفضل الله عليه ، ولذلك بر الناس ودعا إلى البر والاحسان فى مناسبات كثيرة ، فقصائده ، الهمزية النبوية ، وذكرى المولد وبعد المتنبى والهلال الأحمر وحريق ميت غمر كلها شواهد على ما نقول :

والبر عندك ذمة وفريضة لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء

وكان من السهل على نفس شوقى أن يعترف بالفضل لذويه ، وأن يؤدى لأصدقائه الذين لهم عليه صنيع ، شكرا من قلبه ، يكافىء الصنيع ويفضله ألف مرة ، بل أنه يعترف بأن هيكله قد بنى مقدرا الأحسان مقدسا للجمال فهو يدين للثانى ويعتو الأول

ولا أكتم البارى ، بنى الله هيكلى صنيعة إحسان ورفق حسان
أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى وأعنو إذا اقتاد الجميل عنانى

فهذا صديقه العظيم ـ وصديق النبيل ـ المرحوم الدكتور على باشا ابراهيم يتناول بيد الألطاف والرفق والحنان نجله حسينا ، فيجرى له عملا جراحيا يشفيه الله على أثره ، فلا يجد شوقى الوالد الشاعر الحساس أكرم من الشكر ولا أخلد من الشعر يجازى به صديقه ويكافئه على هذا الصنيع .

يا أخى . والذخر فى الدنيا أخ حاضر الخير ، على الخير أعانا
لك عند ابنى أو عندى يد لست ألوها أذكارا وصيانا

حسنت منى ومنه موقعـــا فجعلنا حرزها الشكر الحسانا
هل ترى أنت فإنى لم أجد كجميل الصنع بالشكر اقترانا
وإذا الدنيا خلت من خير وخلت من شاكر هانت هوانا

وهذا أستاذه وأستاذ جيله الشاعر الذواق ، اسماعيل باشا صبرى ، يتوارى عنه فيرثيه معترفا بفضله عليه ، مقرا بأن ريحان شعره نفحات من رياض اسماعيل ودرره من لجة بحره وأنه لم يتعلم غايات السبق إلا فى مضمار فضله ومجال قوافيه .

هل فى يدى سوى قريض خالد أزجيه بين يديك للاتحاف
ما كان أكرمه عليك فهل ترى أنى بعثت بأكرم الألطاف
هذا هو الريحان ، إلا أنه نفحات تلك الروضة المتناف
والدر إلا أن مهد يتيمه بالأمس لجة بحرك القذاف
أيام أمرح فى غبارك ناهجا نهج المهار على غبار خصاف
أتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قوافى

وكما شكر للاشخاص جميل صنعهم معه ، اعترف للبلاد التى كان لها عليه فضل فخلدها فى شعره ، ذاكرا ما أسدته إليه فى حنان إليها عجيب . ووفاء لها غريب هذه باريس التى رشف الشاعر العبقرى فيها مناهل المعرفة وهو فى ريعان الصبا وعنفوان الشباب ، يرميها الجهلة بالخلاعة والمجانة والدعارة . ولا يجدون فيها غير الشهوات والملذات ، منكرين فضلها على العلم والفن والأدب والحكمة . فيدفع شوقى عنها تلك التهم ، ويسجل أياديها على الشرق والغرب .

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة ، يا إفك مازعموك
إن كنت للشهوات ريا ، فالعلا شهواتهن مرويات فيك ...
تلدين أعلام البيان ، كأنهم أصحاب تيجان ، ملوك أريك .
والعلم فى شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك .

ثم يذكر فضلها عليه خاصة ، ويحن الى أيامها ولياليها الحسان على أفقها الضاحك وسمائها الشعرية . ويحتمل لها الصنيعة فلا يجد أغلى ولا أعز من القوافى الفريدة يجزيها به ويكل امر وفائها الى الله جل جلاله .

يا مكتبى قبل الشباب وملعبى ومقيل أيام الشباب الفتوك
ومراح لذاتى ومغداها على أفق كجنات النعيم ضحوك
وسماء وحى الشعر من متدفق سلس على نول السماء محوك
لما احتملت لك الصنيعة لم أجد غير القوافى مابه أجزتك
إن لم يقوك بكل نفس حرة فالله جل جلاله واقيك

ويثنى الشاعر من وطنه العزيز ، فيختار بلاد الأندلس مقاما له ومستقرا ، ويصوغ فى مدة الثنى أروع ماقال من الشعر ، ولا ينسى فضل هذه البلاد عليه وعلى أبنائه ، أنه يعتبرها كجنة الخلد ، فيها الظل الوارف ، والقطوف الدانية ، والنسيم اللطيف ، والحور الحسان ، وقد ترعرع فيها بنوة المصريون ، الذين لايضيع لديهم جميل ، ولا ينسى لديهم صنيع ، إنه يعاهد نفسه أن يقف لسانه على ثنائها ، وجنانه على الولاء لها .

ياديارا نزلت كالخلد ظلا وجنى دانيا ، وسلسال أنس
محسنات الفصول ، لاناجر فيـــها بقيظ ، ولا جمادى بقرس
لاتحس العيون فوق رباها . غير حور حو المراشف لعس
كسيت أفرخى بظلك ريشا وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر ، لا الجميل لديهم بمضاع ، ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس

ويعود الشاعر العظيم إلى وطنه بعد المثنى ، فيذكر بلاد الاندلس ، ويودعها وداعا حارا ، ويثنى عليها أطيب الثناء ، عن علم ومعرفة لأنها أكرمته وأعزته ولأنها حلت من نفسه محل جنة عدن من نفس آدم بفارق يسير هو أن آدم خرج من الجنة التى آوت شوقى فى غربته .

وداعا أرض أندلس . وهذا ثنائى لو رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم . . . وكم من جاهل أثنى مصابا
تخذتك موئلا فحللت أندى ذرا من وائل وأعز غابا
مغرب آدم من دار عدن قضاها فى حماك لى اغترابا

هذه الصفة النبيلة ، وهى الاعتراف بالفضل ، والشكر للنعمة ، تقابلها فى نفس شوقى فضيلة أخرى هى فضيلة التسامح وتناسى الخصومة ، والتسامى بالقلب الإنسانى عن الحقد والحسد . وشوقى هو القائل .

وقد أنسى الإساءة من حسود ولا أنسى الصنيعة والفعالا

وهو القائل :

تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة فى أسمى معانيها
تخلق الصفح تسعد فى الحياة به فالنفس يسعدها خلق ويشقيها
الله يعلم ما نفسى بجاهلة . . . من أهل خلتها ، ممن يعاديها
لئن غدوت إلى الاحسان أصرقها فان ذلك أجرى من معاليها
والنفس إن كبرت رقت لحاسدها واستغفرت كرما منها لشانيها

والواقع أن شوقى كان يكره الحسد أشد الكراهية ، ويمقته أعظم المقت ويعتبره رذيلة يجب أن تستأصل من قلوب البشر ؛ فهو ينصح فى رسالته الناشئة أن يتواضع الانسان فى رفعته ، ويربح من داء الحسد جنيه خوفا من الموت به .

وتواضع فى ارتفاع تعتبر فهما ضدان كبر وكبر
وأرح جنبك من داء الحسد كم حسود قد توفاه الكمد

ويرحب بصوت الشباب فى مشروع القرش . ويعتبره صوت الحق فى غير بغى ولا احتمال لحقد . خلوا من الشهوات التى تفسد صالح الأعمال .

فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق ، لم يبغ ولم يحمل الحقد ولم يخف الحسد
وخلا من شهوة ما خالطت صالحا من عمل الا فسد

ويصعد الطيار الفرنسى « روجى » بطائرته فى جو السماء ما ينتهى إلى غاية ، فيتمنى شوقى أن لو كان فى مكانه . إذن ماهبط الأرض ولا اتخذها مقاما له ، فليس غير الحسد والرياء ، والنزاع ، والخصومة .

أنا لو نلت الذى قد ناله ماهبطت الأرض أرضاها مقاما
هل ترى فى الأرض إلا حسدا ورياء . ونزاعا وخصاما ؟

ويؤسس طلعت حرب بنك مصر . متخذا الصبر عدته والاقدام رائده ، غير متخدع بالثناء ولا عابىء بالذم . فلا يعدم حسادا يكيدون له . ولكنه يمشى فى طريقه من الانتاج المثمر الوطن العزيز . بانيا بمعاول الهدامين جدر بنائه العبقرى الضخم حتى اتى للمصريين بالهرم الرابع

شرفا محمد . هكذا تبنى العلا بالصبر آونة وبالاقدام
همم الرجال إذا مضت لم يثنها خدع الثناء ولا عوادى الذام
وتمام فضلك أن يعيبك حسد يجدون نقصا عند كل تمام
هذا البنا، العبقرى أتى به بيت له فضل وحق ذمام
مازلت أنت وصاحباك بركنه حتى استقام على أعز دعام
أسستمو بالحاسدين جداره وبنيتمو بمعاول الهدام
مازلت تبنى ركن كل عظيمة حتى أتيت برابع الاهرام

ويصدر الدكتور احمد زكى أبوشادى مجلة « أبولو » لخدمة الشعر الحى فيحييها شوقى بأبيات رقيقة ، يأمل فيها أن تذاع المواهب الخافية على يديها ، ويحذر فى نهايتها من النقد الباغى . المنطوى على الحسد والغل

صحائفك المدبجة الحواشى ربى الورد المفتح أو أجل
وليس الحق بالمنقوض فيها ولا الاعراض فيها تستحل
وليست بالمجال لنقد باغ وراء يراعه حسد وغل

ولشوقى رأى فى النقد جميل ، عرضه فى اسواق الذهب ، نقتطف منه هاتين الجملتين ، لأنهما بسبيل ما نحن فيه ، ومن نقد على حقد احترق ، وإن ظن أنه حرق ومن نقد على حسد ، لم يخف بغيه على أحد »

ويفرح شوقى أشد الفرح بائتلاف الأحزاب ، ومصافاة الأقلام . ويصور المحبة بعد الحقد ، والمودة بعد الضغينة ، تصويرا شعريا يأخذ بمجامع القلوب

التأمت الأحزاب بعد تصدع وتصافت الأقلام بعد تلاح
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ومشى على الضغن الوداد الماحى
وجرت أحاديث العتاب كأنها سمر على الاوتار والاقداح

ويصف صديقه العبقرى الفذ ، الدكتور على باشا ابراهيم أدق وصف ، ويلمس من قلبه العظيم أنبل الصفات الانسانية وأرقها ، وألصقها بمهمة الطب ، ليعطى غيره من الاطباء صورة ملائكية للرحمة والواجب معا ، وليعطى الحاسدين صورة شوهاء لجنب مظلم يفتك به أشد الامراض خطرا ، وأعظمها ضراوة

تنكر الارض عليه جسمه واسمه أعظم منها دورانا
فى خلال لفتت زهر الربى وسجايا أنست الشرب الدنانا
لو أتاه موجعا حـــاسده سل من جنب الحسود السرطانا

٥

وكان شوقى وفيا نادر المثال بين الاوفياء ، منح أصدقاءه كل قلبه وهم على قيد الحياة ، فلما ماتوا جزاهم بدمعه وشعره أكرم مجازاة . لقد خلد العاملين لخير الوطن وأضفى عليهم من الثناء حللا لا تبلى . كرم لطفى السيد واحمد حسنين وطلعت حرب وسعد زغلول وعلى ابراهيم . وأمين الريحانى . ورثى كثيرا ممن اتصلت بينه وبينهم أسباب المودة رثاء حارا .

يقولون يرثى كل خل وصاحب أجل إنما أقضى حقوق صحابى
جزيتهمو دمعى ، فلما جرى المدى جعلت عيون الشعر حسن ثوابى

وإذا كنا سنعرض ـــ فيما بعد ـ لمراثى شوقى من الناحية الاخلاقية والصفات الخاصة التى امتاز بها بعض أبطال النهضة الحديثة الذين خلدهم فى شعره ، فانه لا يفوتنا هنا أن نلمس حزن قلبه على المصطفين الاخيار من أخلائه .

وأنا أعلم أن الرثاء كان يرهق شوقى رهقا شديدا ، لقد قال لى فى احدى المناسبات ـــ ورفع سبابته الرفيعة الدقيقة وهزها برفق فى صوت خفيض ـ اياك أن ترثى أحدا ـ لقد كان يخاف الموت ويضعه نصب عينيه عندما يرثى ، ولذا كان يلاقى عناء نفسيا أليما فى هذا اللون من الشعر ، كان قلبه رقيقا لا يتحمل الصدمات ولولا أنه يعتبر نفسه مسئولا أمام التاريخ وأمام قلبه ، ما وجدنا هذه المجموعة الكبيرة من الشعر الناطق بأروع المثل وأنبل العواطف

اقرأ معى بإحساسك وقلبك هذه الأبيات من قصيدة فى رثاء سعد :

أين من عينى نفس حرة كنت بالأمس بعينى أراها
كلما أقبلت هزت نفسها وتواصى بشرها بى ونداها
وجرى الماضى فماذا ادكرت وادكار النفس جزء من هواها
ألمح الأيام فيها وأرى من وراء السن تمثال صباها
حلت السبعون فى هيكلها فتداعى وهى موفور بناها
روعة النادى إذا جدت فان مزحت لم يذهب المزح بهاها
ولها صبر على حسادها يشبه الصفح وحلم عن عداها
فى سبيل الله نفس أوتيت أنعم الدنيا فلم تنس تقاها
لا الحجا لما تناهى غرها بالمقادير ولا العلم زهاها

ثم اقرأ معى بإحساسك وقلبك هذه الأبيات من قصيدته فى اسماعيل شيرين

من عادة الذكرى ترد من النوى من لا يدين لنا بطى غيابه
حلم كاحلام الكرى وسناته مستعذب فى صدقه وكذابه
فاسكب دموعك لا أقول استبقها فأخو الهوى يبكى على أحبابه

ولا أريد أن أطيل فى ضرب المثل . فالجزء الثالث من الشوقيات مملوء بأمثال هذه العواطف . وقد قلت له مرة ، إن مطلع قصيدتك فى حافظ يعدل ديوانا من شعر الرثاء . فأطرق هنيهة . ثم قال ان حافظا كان يرثى . ثم انى أعرفه من ثلاثين سنة ، معرفة إخاء وصداقة وإعزاز . وكنت أود أن أموت قبله ليرثينى . إن هؤلاء الذين يزعمون أنهم أخلاء حافظ وأحباؤه وأن شوقى منافس له . لا يفهموننا حق الفهم . إننا ما تخاصمنا فى يوم من الايام واذا كانوا قد أصدروا عددا من السياسة الأسبوعية لذكراه ، فانه لم يفتنى وأنا اصطاف بالاسكندرية أن اقيم له حفلة تأبين تليق بمقامه . كشاعر عظيم وصديق كريم

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يا منصف الموتى من الاحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة قدر وكل مغيبة بقضاء

ولو لم يكن من وفاء شوقى إلا أنه قال لسكرتيره الخاص ، احمد افندى عبد

الوهاب أبو العز . عندما أحس بدنو الاجل وانتهاء الحياة . « سلم على أصدقائى » لكانت هذه الكلمة وحدها أروع وأنبل مافى باب الوفاء من مثل .

لقد كان شوقى إنسانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وكان رفيع الخلق بدرجة تؤهله أن يكون شاعر الأخلاق ، إنه لم يكتسب أخلاقه من الوسط الذى عاش فيه . بل كانت موهبته الأخلاقية كموهبته الشعرية أصلا متأصلا فى نفسه . من يوم ولدته أمه إلى أن لقى الله راضيا مرضيا .

أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلاق الكرام به نظما

سلام على شوقى العطوف ، سلام على شوقى المهذب سلام على شوقى الشجاع سلام على شوقى الشكور ، سلام على شوقى المتسامح ، سلام على شوقى الوفى ، سلام على شوقى الصديق

(للموضوع بقية)

عبد الوهاب عنانى الخطيب
المدرس بمعلمى بنى سويف